البديـع عند الجاحظ

د . كولان علي الشريف
جامعة الفاتح

كلمة البديع فى اللغة تدور حـول الجديـد، والمحـدث، والمخـترع، جاء فى لسان العرب، بدع الشيء يبدعه بدعاً ، وابتدعه أنشاه وبـدأه ، وبـدع الركيـة اسـتنبطها وأحـدثها، والبـديع المحـدث العجيـب، وأبـدعت الشـيء اخترعته لا عن مثال، والبديع من أسماء الله تعالى، لإبداعه الأشياء وإحداثـه إياها ، ويجوز أن يكون بمعنى مبدع، أو يكون من بـدع الخلـق، أى بدعـه الله تعـالى ، كمـا قـال : ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأنعـام : 101] أي خالقهما ومبدعهما فهو ـ سبحانه ـ الخـالق، المخـترع لا عـن مثـال سـابق، وسقاء بديع أي جديد، وكـذلك زمـام بـديع وحبـل بـديع جديـد ، وأبـدع الشاعر : جاء بالبديع »[1] . هذه المعاني تنتهي إلى أمرين اثنين :

1 ـ الجدة التـى يـدل عليهـا إنشـاء الشـيء ابتـداء وعلـى غـير مثـال سابق .

2 ـ البراعة والغرابة التى يدل عليها العجيب .

---

(1) لسان العرب لابن منظور مادة « بدع » .

والوارد فى كل المعاجم لايخرج عن هذين المعنيين اللغويين [1] .

وأما فى القرآن الكريم، فقد وردت كلمة « بديع » مرتين فى قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: 117] وقوله تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [الأنعام: 101] . ومعناهما فى هاتين الآيتين : منشئهما ومبدئهما على غير مثال سابق [2] ، وهذا كله يتضمن معنى العجيب ، والطريف الذى يلفت النظر، لأن خلق السماوات والأرض، ابتداء يستدعى الإعجاب وقد اتخذ دليلاً على قدرة الله وألوهيته .

أما البديع اصطلاحاً فإن بينه وبين المعنى اللغوى، صلة قريبة سوغت التسمية وأجازت الإطلاق . فمن تعريفات بعض العلماء ، نذكر تعريف الخطيب القزوينى لمصطلح البديع، بقوله : « هو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام، بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال، ووضوح الدلالة » [3] .

ويقول ابن خلدون : « هو النظر فى تزيين الكلام، وتحسينه بنوع من التنميق، إما بسجع يفصله ، أو تجنيس يشابه بين ألفاظه ، أوترصيع أوزانه، أو توربة عن المعنى المقصود بإيهام معنى أخفى منه لاشتراك اللفظ بينهما، أوطباق بالتقابل بين الأضداد، وأمثال ذلك » [4] .

وإذا كان ابن خلدون في تعريفه قد أورد بعض أنواع البديع ، فإن حاجي خليفة ، فى تعريفه للبديع يبين قيمته بين علوم البلاغة العربية فيقول : « هو علم يُعْرَف به وجوه تفيد الحسن فى الكلام ، بعد رعاية المطابقة لمقتضى المقام ، ووضوح الدلالة على المرام ، فإن هذه الوجوه إنما تعد محسنة بعد تينك الرعايتين، وإلا لكان كتعليق الدر على أعناق الخنازير، فمرتبة هذا العلم بعد مرتبة علم المعانى والبيان، حتى أن بعضهم لم يجعله علماً على حدة، وجعله ذيلاً لها، لكن تأخر رتبته لايمنع كونه علماً مستقلاً، ولو اعتبر ذلك لما كان كثير من العلوم علما على حدة فتأمل » [5] .

---

(1) انظر لسان العرب ، القاموس المحيط ، تاج العروس ، مادة « بدع » .

(2) راجع معجم ألفاظ القرآن الكريم لعبد الباقي 85 : 1 .

(3) انظر الإيضاح للخطيب القزويني : 192 .

(4) انظر مقدمة ابن خلدون : 551 .

(5) انظر كشف الظنون لحاجي خليفة 1 : 48 .

أما الجاحظ فإنه يقصر البديع على العرب ، ويجعله سبب تفوق لغتهم على سائر اللغات ـ « والبديع مقصور على العرب، ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة » [1] . ولم يكن الجاحظ أول من استعمل هذا اللفظ ، بل كان معروفا قبله ، كما لم يكن أول من فضل شاعراً على غيره ، لما فى شعره من البديع ، فقد سئل الأصمعى عن بشار بن برد ، ومروان بن أبى حفصة ، أيهما أشعر ؟ فأجاب : بشار أشعرهما فلما سئل عن سبب تفضيله بشاراً ، قال : لأن مروان سلك طريقا كثر سلاكه، فلم يلحق بمن تقدمه، وإن بشاراً سلك طريقاً لم يسلكه أحد ، فانفرد به وأحسن فيه، وهو أكثر فنون شعر، وأقوى على التصرف، وأغزر وأكثر بديعا، ومروان آخذ بمسالك الاوائل » . [2]

وهذا الحكم فى الحقيقة ، غريب من الأصمعى أن يفضل بشاراً لأنه لم يسلك مسلك الأوائل على مروان الذى سلك مسلكهم ، وأشد غرابة أنه قال فى تفضيل بشار (أكثرهم بديعا) ، ولم يقل (أحسنهم بديعا) ، فكثرة البديع هي التى أسقطت أبا تمام فى نظر الرواة من أمثال الأصمعى ، وفى نظر النقاد المعجبين بِقديم الشعر ، ولكن يبدو أنه يريد أن من يسلك مسلك الأوائل ، ولا يحسن إحسانهم ، يتخلف عمن ينفرد بطريقة ويحسن فيها .

وقد قيل إن أول من أطلق هذا المصطلح، أي البديع مسلم بن الوليد ، المتوفى 208هـ ، وكان قبله يعرف (باللطيف) [3] ومسلم « هو أول من وسع البديع ، لأن بشار بن برد أول من جاء به ، ثم مسلم فحشا به شعره ، ثم جاء أبو تمام فأفرط فيه ، وتجاوز المقدار » [4] .

وقد عدد الجاحظ جماعة من شعراء البديع ، وذهب إلى أن البديع مقصور على العرب ، وأحيانا يأتى بأمثلة لهذا البديع .

ولكن ماالمراد بالبديع عند الجاحظ ؟

يرى بعض الكاتبين أن المراد بالبديع عند الجاحظ « فنون التعبير المختلفة من

(1) انظر البيان والتبيين 4 : 55 .
(2) الموشح للمرزباني : 251 .
(3) مقدمة ناشر البديع لابن معتز : 8 .
(4) طبقات الشعراء لابن المعتز : 235 .

مجاز وتشبيه وكناية وغيرها » [1] . ويرى باحث آخر أن الجاحظ كان يريد بالبديع الكلام الذي يتضمن المثل ـ وتدخل في ذلك الأمثال ـ ثم يلاحظ أن الأبيات التي يستحسنها الجاحظ تشتمل على نكت بلاغية كالتجنيس والطباق والسجع والإزدواج والتشبيه والإطناب [2] . وثالث يرى أن البديع عند الجاحظ وصف المعانى والصور الغريبة ، كالاستعارة والتشبيه ، وغيرهما من الصور البلاغية الأخرى [3] .

ويزيد الكاتب الأول من هؤلاء الثلاثة رأيه إيضاحا ، فيقول : أطلق الرواة اسم البديع لذلك العهد إطلاقاً عاماً على المستحدث من الألوان البلاغية من تشبيه ومجاز ، وما إليهما من ألوان التفنن فى الأداء والمحسنات البديعية [4] .

وهو وإن لم ينسب الرأي للجاحظ إلا أنه جعل هذا التفسير للبديع مدلوله في ذلك العهد ، أي عهد الجاحظ ، وكأن الجاحظ حين يقول : وهذا الذي تسميه الرواة البديع، يقصد ماكانوا يقصدونه من تشبيه ومجاز وما إليهما من أنواع التفنن في الأداء ، والمحسنات البديعية .

وهو كلام واسع (أنواع التفنن في الأداء والمحسنات البديعة) وما أظن أحداً يظن أن الرواة كانوا يطلقون البديع على هذا المعنى ، الشامل الواسع ، ولو قال (المحسنات البديعية التى عرفت فى زمانهم) لكان قد قارب ، ولعل هؤلاء اغتروا بما قاله القدماء فى البديع مثل ابن المعتز ، وقدامة ، وأبى هلال ولكن الذى يمعن النظر فى صنيع الجاحظ لا يجد مايؤيد ماذهبوا إليه ، فكل الأمثلة التى ذكرها وقرن بها كلمة البديع لاتؤيد أن الجاحظ كان يفهم البديع على نحو ماكان يفهمه غيره ممن ألفوا فى البديع بعده بقليل، أو من باحثينا المعاصرين . روى الجاحظ هذه الابيات لسودة بن رملة :

إن الألى حانت بفلج دماؤهم هم القوم كل القوم ياأم خالد
هم ساعد الدهر الذي يتقى به وما خير كف لاتنوء بساعد
أسود شرى لاقت أسودا خفية تساقوا على حرد دماء الأساود

(1) البلاغة العربية في طور نشأتها : 51 .
(2) البلاغة عند السكاكي د . أحمد مطلوب : 85 .
(3) بلاغة أرسطو بين العرب واليونان ، د . إبراهيم سلامة : 87 .
(4) البلاغة العربية في طورنشأتها : 160 .

ثم علق عليها : قوله (هم ساعد الدهر) إنما هو مثل ، وهذا الذى تسميه الرواة (البديع) وقد قال الراعي :

هم كاهل الدهر الذى يتقى به ومنكبه إن كان للدهر منكب

وقد جاء فى الحديث : « موسى الله أحد ، وساعد الله أشد » ، وذكر فى موضع آخر قول الراجز فى (البديع المحمود) ـ على حد قوله :

قد كنت إذ حبل صِبَاكَ مُدْمَشُ وإذ أَهَاضِيبُ الشباب تبغَشُ [1]

قال : ومن هذا (البديع المستحسن) قول حجر بن خالد بن مرشد :

سمعت بفعل الفاعلين فلم أجد كفعل أبى قابوس حزما ونائلا

يساق الغمام الغرُّ من كل بلدة إليك فأضحى حول بيتك نازلا

فأصبح منه كل واد حللته وإن كان قد خوى المرابيع سائلا

فإن أنت تهلك يهلك الباع والندى وتضحى قلوص الحمد جرباء

فلا ملك مايبلغنك سعيه ولاسرقه ما يمدحنك باطلا [2]

هذه النصوص ـ فيما وقعت عليه من كتب الجاحظ ـ التي أوردها مقترنة باسم البديع، باستثناء نص واحد لا يختلف عن هذه في موضع الشاهد منه .

وفي هذه النصوص نلاحظ أن نظر الجاحظ كان متجها إلى نوع خاص من فنون البيان، هو الذى يمثل له بمثل : (ساعد الدهر) (موسى الله) (ساعد الله) . (كاهل الدهر) . (حبل الصبا) . (أهاضيب الشباب) (قلوص الحمد) وفى رواية ديوان الحماسة لأبى تمام : (قلوص الحرب) ، وكل هذه الأساليب يطلق عليها علماء البيان اصطلاح واحد هو (الاستعارة المكنية) .

فهل كان الجاحظ يفهم أن البديع يطلق على هذا النوع بخاصة ؟ .

(1) الحيوان للجاحظ 3 : 58(مدمش : مدمج بمعنى محكم ، وقد أبدل الشين عن الجيم لمكان الروى ـ كما في اللسان اللسان ـ والبغشة : المطرة الضعيفة وقد بغشت السماء كمنع والبي يبغش وذلك إذا أجهش إليك ـ كما في القاموس .

(2) أبوقابوس : هو النعمان بن المنذر ، خوى : سقط ، المرابيع : النجوم التي يكون بها المطر والمراد لو نزلت مكانا محروما من الغيث لأفضت عليه الخير ، الباع : الشرف ، القلو : الناقة الشابة .

إن عبارته التي علق عليها على الشاهد الاول : (وهـذا الـذى تسـميه الـرواة البـديع) تحملنا على أن نجيب على هـذا السـؤال بـ (نعـم) . ويؤيـد إجابتنـا هـذه ماوجـدناه مـن الأمثلة السابقة للجاحظ : عن أحمد بن خـلاد عـن أبيـه قـال، قـال لى العتـابى ـ وتجادبنـا البديع من شعره ، وقول أبى نواس :

لمـــا بـــدا ثعلـــب الصـــدود لنـــا أرسـلت كلـب الوصـال فـى طلبـه

جـــاء بـــه والجليـــل يعتلـــه منقلبـــا رأســـه علـــى ذنبـــه

فقال والله ، إنه لشاعر، ولكن تمادى به حب البديع حتى أغرق فيه [1] .

فالعتابي يرى صنيع أبي نواس في هذين البيتين إغراقا منه في البديع ، إذ أنـه جـاء باستعارتين غير سائغتين (ثعلب الصدود) (وكلـب الوصـال) ، وربمـا صـح أن نفهـم هنـا نوعا آخر من البديع ، وهو الطباق وإذا شئنا قلنا المقابلة ، بـين (ثعلـب الصـدود ، وكلـب الوصال) والطباق بين [الرأس والذنب] ، ولكن الشيء المؤكد هو الاستعارة المكنية .

أما عبارة الأصمعي التي ذكرناها في المفاضـلة بـين بشـار ومـروان ، الـتي تجعـل بشاراً مبتدعاً ومروان متبعاً للأوائل ، فإنها لم تحدد نوع الابتداع في شعر بشار ، فـإن كـان الأمر على قياس مارأينا عند العتابي والجاحظ ، فإن ابتداع بشار حينئذ ، يكـون في هـذين النوعين من التصوير الأدبي، وإن كنا نعرف أنهما قـديمان في الشـعر العربـي . وقـد روي عن حذيفة محمد الطائي الكوفي وكان من العلماء ـ قولـه أبوتمـام يريـد البـديع فيخـرج إلى المحال [2] .

والـذي نفهمـه مـن هـذه العبـارة أن المـراد بالبـديع هـو أيضـا الاسـتعارة المكنيـة لأمرين :

أولا : أن أبا تمام ـ فعلا ـ أسرف في استخراج كثير من أسـاليب هـذه الاسـتعارة ، وهي التي كانت عند النقاد والقدماء موضع ذمه ، أما الجناس والتطبيـق فقـد بـالغ فيهمـا ، ولكن لم يكونا موضع ذم كما كانت الاستعارة المكنية .

ثانياً : إن الإحالة التي ذكرها (الكوفي) إنما تكـون في المعـاني ، ويبعـد أن تكـون في التجنـيس أو المطابقـة . وقـد سمـي الجـاحظ هـذه العبـارة (هـم سـاعد الـدهر)

(1) الموشح : 286
(2) الموشح : 304

سماها (المثل) ، وجعل المثل هو البديع ، ولو تتبعنا كلمة (مثل) في كتب الجاحظ لوجدناه يقصد منها (المجاز) في مثل قوله عن (نار الحرب) : إنها نار على طريق (المثل) لاعلى طريق الحقيقة [1] .

فمقابلة (المثل) (بالحقيقة) يشعر بأنه يريد به (المجاز) ، والكلمة محتملة لأن تكون من قبيل الاستعارة المكنية، وهو الظاهر ، ولأن تكون من قبيل التصريحة ، إذ كان يريد تشبيه شدة الحرب بالنار وإطلاق المثل على الاستعارة التصريحية ، إذا كان يريد تشبيه شدة الحرب بالنار، وإطلاق المثل على الاستعارة التصريحية ليس غريبا على الجاحظ ، ومن ذلك قوله من رسالة في استئجار الوعد :

« قد شاع الخبر وسار المثل بقولهم : اطلبوا الحاجات من حسان الوجوه ، فإن كان الوجه إنما وقع على الوجه الذي فيه الناظر والسامع والشام والذائق ، إذا كان حسنا جميلا ، وعتيقا بهيا ، فوجهك الذي لا يحيل على أحد كماله ، ولايخطئ حواله ، وإن كان ذكر الوجه إنما يقع على حسن وجه المطلب وجماله ، على جهة الرغبة ، وإن كان ذلك طريق المثل ، وعلى سبيل اللفظ المشتق من اللفظ ، والفرع المأخوذ من الأصل ، فوجه المطلب إليك أفضل الوجوه وأسناها ، وأصوبها وأرضاها ، وهو المنهج الفسيح ، والمتجر الربيع ، وجماله ظاهر ، ونفعه حاضر ، وخيره غامر [2] .

فسر الوجه ـ هنا ـ بالمطلب على جهة (المثل) كأنه يقول : إن استعمال الوجه في مكان المطلب استعارة تصريحية على ما اصطلح عليه المتأخرون . فمن الممكن أن نلحق هذه الاستعارة بأختها المكنية ونجعلها بعض المراد من البديع عند الجاحظ .

وهناك نوع آخر من المجاز ، وهو ماسماه المتأخرون (المجاز المرسل) يمكن أن نجعله نوعا ثالثا من البديع ، ذلك أن الجاحظ حين ذكره في قوله تعالى عن النحل : ﴿تَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ﴾ [النحل: 69] فقال : فالعسل ليس بشراب ، وإنما يحول بالماء شراباً ، أو بالماء نبيذاً ، فسماه كما ترى ـ شراباً ، إذ كان يجيء منه شراب وقد جاء في كلام العرب أن يقولوا : جاءت السماء اليوم بأمر عظيم ، وقد قال الشاعر :

إذ نزل السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا

(1) كتاب الحيوان 5 : 133 .

(2) رسائل الجاحظ : (هامش الكامل) المبرد 2 : 221 .

فزعموا أنهم يرعون السماء ، وأن السماء تسقط . حين ذكر الجاحظ ذلك اتبعه بقوله: « وهذا الباب هو مفخر العرب في لغتهم ، وبه بأشباهه اتسعت» (1) .

وهذه الكلمات تشبه كل الشبه كلماته في امتداح البديع ، الذي فاقت لغة العرب به غيرها، فلاغرو أن كان هذا المجاز ـ عند الجاحظ ـ أحد أنواع البديع ، وإن لم يعده أحد بعده من البديع ، وكلمة الجاحظ : « وبه وبأشباهه اتسعت» يدل على أنه يعرف للمجاز فنونا ، منها هذا النوع ، وله أشباه أخرى ، فهو سر اتساع لغة العرب وموضع فخرها .

وفن رابع من فنون البيان أطلق عليه الجاحظ لفظ (المثل) ذلك هو « التشبيه» ، فقد قال في قوله تعالى : ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ . وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ [الأعراف: 175 ـ 176] .

وقد ذكرها ليدل على فضيلة علم الكلام ، ذلك أنه لاينفع في باب من القول رجل ليس له علم بالكلام ، ولو كان أعلم الناس باللغة ، هكذا يقول على ذلك ، بأن معترضين اعترضوا على هذه الآية « فزعموا أن هذا (المثل) لايجوز أن يضرب لهذا المذكور في صدر هذا الكلام» . . ، فما يشبه حال من أعْطِىَ شيئاً فلم يقبله بالكلب الذي إن حملت عليه نبح وولى ذاهباً وإن تركته شدَّ عليك ونبح» (2) . فالاعتراض هنا على التشبيه وقد سماه الجاحظ المثل ، فالقياس يصحح لنا أن الجاحظ كان يعد التشبيه فناً من فنون البديع .

وربما وقع في وهم واهم أن الجاحظ يطلق لفظ (المثل) على هذا النوع الخاص من التشبيه ، وهو الذي شبه فيه حال بحال ، ولكن الحقيقة أن الجاحظ يطلق (المثل) على أسلوب التشبيه بعامة ، فقد ذكر قوله تعالى : ﴿طلعها كانه رءوس الشياطين﴾ وذكر ـ معه اعتراضاً وهو قولهم : كيف يضرب المثل بشيء لم نره فنتوهمه ؟ وعلى هذا نستطيع القول إن الجاحظ يريد بالبديع الاستعارة بنوعيها والمجاز المرسل والتشبيه ، وإن شئنا قلنا : يقصد به المجاز والتشبيه .

وقد كانت هذه الآية مكان طعن ومن أجل هذا وضع أبوعبيدة كتابه (المجاز) فنذكر هنا ـ قياماً بحقها ـ ردَّ الجاحظ على أهل الطعن والخلاف . يجيب الجاحظ « قلنا

(1) كتاب الحيوان : 5 : 425 و 426 .

(2) كتاب الحيوان 2 : 6 .

وإن كنا نحن لم نر شيطاناً قط ولا صور رؤوسها لنا صادق بيده . . . ففي إجماع المسلمين والعرب ، وكل مالقيناه على ضرب المثل بقبح الشيطان دليل في الحقيقة على أنه أقبح من كل قبيح ، والكتاب إنما نزل على هؤلاء الذين قد ثبت في طبائعهم بغاية التثبيت» (1) . وقد ذكر هذا الجواب في موضع آخر ، وزاد فيه : «ولكن لما كان الله تعالى قد جعل في طبائع جميع الأمم استقباح صور الشياطين واستسماجه وكراهته [هكذا] وأجرى على ألسنة جميعهم ضرب المثل في ذلك رجع بالإيحاش والتنفير ، وبالإخافة والتقريع إلى ما قد جعله الله في طبائع الأولين والآخرين، وعند جميع الأمم» (2) . ونلاحظ أن الجاحظ في رده كرر كلمة (المثل) مما يدل على أن إطلاقه على التشبيه أمر مستقر في خاطره .

أما ذهب اليه كتابنا المعاصرون من أن الجاحظ كان يطلق البديع على المحسنات البديعية وتخصيصهم (الجناس والطباق) بالذات ، مع أنه ليس في عبارات الجاحظ التي قدمناها ما يدل على هذا الإطلاق نرى أن ذلك لايتفق مع قول الجاحظ : إن البديع مقصور على العربية ، وإنه سر تفوقها على اللغات ، فهل فاقت العربية غيرها بالجناس والطباق والمذهب الكلامي الذي وصفه ابن المعتز بأنه تكلف ؟ ثم لوكان الجاحظ يفهم البديع على هذا الوجه ، لكان معنى ذلك أن المحسنات البديعية كانت شائعة في العربية مع أن تسمية الرواة لها بديعاً يُشْعِر بأنها طارئة، وذلك مايؤيد قول ابن المعتز كما سيجيء : «وإنما كان يقول الشاعر من هذا المعنى البيت أو البيتين في القَصيدة ، وربما قرئت من شعر أحدهم قصائد من غير أن يوجد فيها بيت بديع ، وكان يستحسن ذلك منهم إذا أتى نادراً» (3) .

فكيف يكون مفخر لغة العرب ، وتفوق به غيرها وهو إنما يستحسن إذ أتى نادراً؟ . أستطيع ان أؤكد استنادا إلى هذه النصوص ـ أن بديع ابن المعتز غير بديع الجاحظ ، وإلا كان لنا أن نحمل كلام أحدهما على المبالغة، والاتساع في الدعوى .

والجاحظ حين يفيض في ذكر صور المجاز والتشبيه وغيرهما من ألوان الإتساع في الكلام لا ينسى مذهبه في بلاغة الكلام تلك البلاغة التي يجعلها في (الصناعة) ،

(1) الحيوان 6 : 213

(2) المصدر السابق 4 : 39

(3) البديع لابن المعتز : 16 .

ولذلك لا نعد مبعدين عن قضيتنا إذا تتبعنا الجاحظ في نظراته البيانية

أكثر الجاحظ من أمثلة المجاز ، وفرق بينه وبين التشبيه ـ في الغالب ـ فهو يعرض للمجاز في كلمة (الأكل) فبعدما ذكر أن نار المصباح تأكل الذهن ، قال : « وقد يقولون ذلك أيضا على سبيل المثل ، وعلى الاشتقاق وعلى التشبيه] ثم يذكر أمثلة بعد ذلك للاستعارة التصريحية من مثل قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا﴾ [النساء: 10] وقوله تعالى : ﴿أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِ﴾ [المائدة: 42] وقوله : « وقد يقال لهم ذلك وإن شربوا بتلك الأموال والأنبذة، ولبسوا الحلل وركبوا الدواب ولم ينفقوا منها درهماً واحداً في سبيل الأكل » (1) .

وبعد شواهد واضحة ينتقل الى المجاز في كلمة [الذوق] (2) فيذكر قوله تعالى : تعالى : ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾ [الدخان: 49]، وقول يزيد بن الصعق :

وإن الله ذاق حلـــــوم قـــــيس فلمـــــا ذاق خفتهـــــا قلاهـــــا

ثم يقول : « وللعرب إقدام على الكلام ثقة بفهم أصحابهم عنهم » والذي يمكن أن نأخذه على الجاحظ هنا أنه وقف في سبيل القياس على مجازات العرب، وحتم أن نلتزم ماالتزموا : ليس هذا مما يطرد لنا أن نقيسه ـ يريد مجازات الكلام ـ وإنما نقدم على ما أقدموا ونحجم عما ما أحجموا ، وننتهي الى حين انتهوا » (3) كما أكثر من أمثلة أمثلة التشبيه وأنه ليتنبه إلى لطائف فيه ، فهو يرى أنه حقيقة ، ولايشبه المجاز في المبالغة يقول : إن الشعراء والبلغاء والعلماء يشبهون الإنسان بالقمر والشمس ، وبأشياء أخرى ولكنهم لا يخرجونه بهذه المعاني إلى هذه الحدود وهذه الأسماء (4) .

لكنه قد يخلط بين التشبيه والاستعارة ، يقول : وكذلك النمام يشبه بالقنفد لخروجه بالليل، دون النهار، ولاحتياله للأفاعي قال عبدة بن الطيب :

اعصوا الذي يُلْقِي القَنَافِذَ بَيْنَكُمْ متَضّحاً وهو السِّمَامُ الأنقع (5)

(1) الحيوان : 5 : 25 ـ 5 : 28 .
(2) الحيوان : 5 : 28 وما بعدها .
(3) الحيوان : 1 : 212 .
(4) الحيوان : 1 : 211 .
(5) الحيوان : 4 : 166 .

وكأنه يشير إلى أن التشبيه أصل الاستعارة ، وأكثر التشبيهات التي يوردها مذكورة الأداة .

وقد صرح الجاحظ بلفظ الاستعارة ولكن ورود الكلمة في كتبه قليل ، ومن ذلك ماجاء عند كلامه على باب (الذباب) فقد ذكر أن للذبان يعاسيب ولكن ليس له قائد ولا أمير ثم قال : « وكل قائد فهو يعسوب ذلك الجنس المقود، وهذا الاسم مستعار من فحل النحل» .

ثم ذكر شاهداً من كلام سيدنا على بن ابى طالب ـ كرم الله وجهه ـ في صلاح الزمان وفساده، وهو قوله : « فإذا كان ذلك ضرب يعْسُوبُ الدينِ بِذَنَبِه» [1] وقال في الموضع نفسه : « وعلى ذلك المعنى قال حين مر بعبد الرحمن بن عتاب بن أسيد قتيلا يوم الجمل : لهفي عليك يعسوب قريش، جدعت أنفي ، وشفيت نفسي» .

وكذلك جاء لفظ الاستعارة ، والإشارة إلى تعريفها في موضع آخر وذكر هذه الأبيات :

يا دار قد غيرها بلاها كأنما بقلم محاها
أخربها عمران من بناها وكَرٌّ ممساها على مغناها
وطفقت سحابة تغشاها تبكى على عراصها عيناها

ثم أخذ في تفسير الشطر الأول من البيت الثاني ، ووقف عند إسناد إخراب الدار إلى عمران بانيها، وأخذ يورد الشواهد على أن هذا الاستعمال كثير في لغة العرب، وفي القرآن، أن يوضع الشيء موضع هذه ، ومن شواهده قوله تعالى : ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمۡ يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ [الواقعة: 56] قال : « والعذاب لايكون نزلا ولكن لما قام العذاب لهم مقام النعيم لغيرهم سمي باسمه» ، ثم بعد أن شرح البيت الثالث قال : « وجعل المطر بكاء من السحاب على طريق الاستعارة ، وتسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه» [2] ، وقد مر الجاحظ هنا ، بالمجاز العقلي، ولم يفطن له ، أو على الأقل لم ينبه عليه ، ففى الثانى إسناد الفعل (أخرب) الى الزمن (كر ممساها) ولكنه اكتفى بقوله : « لأن الأيام مؤثرة في الأشياء بالنقص والبلى» ولا أعتقد أن الجاحظ يرى أن هذا التأثير على الحقيقة .

(1) الحيوان : 3 : 329 .
(2) البيان والتبين 1 : 153 .

هل البديع متعلق باللفظ ؟

الجاحظ يرى مزية الكلام في لفظه، ويرى أن لغة العـرب فاقـت بالبـديع كـل لغـة سواها، فالنتيجة الحتمية أن البديع كله من بـاب الحسـن في العبـارة . لكـن قـد ذكـر ابـن المعتـز في كتابـه (البـديع) النـوع الخـامس منـه ، وقـال وهـو مـذهب سمـاه عمـرو بـن بحر (المذهب الكلامى) وهذا بـاب مـا أعلـم أنـي وجـدت في القـرآن منـه شـيئاً ، وهـو ينسب إلى التكلف تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً [1] .

والعبارة الأخيرة تحتمل أن تكون من كلام الجاحظ ، أو أن تكون من عبـارات ابـن المعتز (والتهاونى) يسندها إلى الجاحظ، إذ يقول « وزعم الجـاحظ أن المـذهب الكلامـى لا يوجد منه شيء في القرآن» [2] . وادعى السـيوطى أن (ابـن أبـي الاصـبع) نسـب هـذه الكلمة إلى الجاحظ قال : وقال ابن أبى الاصبع : « زعم الجاحظ أن المـذهب الكلامـى لا يوجد منه شيء في القرآن» [3] .

ولكن ابن أبى الاصبع نسب العبارة إلى (ابن المعتز) حيث قال : وهو الـذي نسـبت تسميته للجـاحظ ، وزعـم ابـن المعتـز أنـه لا يوجـد في الكتـاب العزيـز ، وهـو محشـو منه [4] ، وكذلك نسب أبوهلال العسكرى (هـذه العبـارة) إلى ابـن المعتـز قـال : « جعلـه عبدالله بن المعتز الباب الخامس من البـديع ، وقـال مـا أعلـم أنـي وجـدت شـيئاً منـه في القرآن، وهو ينسب إلى التكلف ، فنسبه إلي التكلف وجعله من البديع » [5] .

وسواء كانت هذه العبارة من قول الجاحظ، أم من قول عبدالله بن المعتز، فإنه يبعـد أن يجعل المذهب الكلامـى ، مـن البـديع ، علـى مـا فهمـه ابـن المعتـز مـن معنـى هـذا المذهب، فالجاحظ يغالى بقيمة البديع ، فلا يجعل منـه مـايغمض بـه الكـلام . ويبـدو أن ابن المعتز فهم منه أنه إيراد حجـة للمطلـوب علـي طريقـة المـتكلمين ، ولهـذا نسـبه إلى التكلف ، لكن نجـم الـدين الطـوفى قـال في جـدل القـرآن : إن المـذهب الكلامـى إيـراد الحجج والبراهين على عادة العرب دون دقـائق طـرق المـتكلمين فـإذا كـان كـذلك فقـد

(1) البديع لابن المعتز : 101
(2) كشاف اصطلاحات الفنون : 1 : 511
(3) الإتقان في علوم القرآن 2 : 135 .
(4) تحرير التحبير : 119 .
(5) كتاب الصناعتين : 410 .

يكون هذا من بديع الجاحظ .

وكلمة أبي هلال : (فنسبه إلى التكلف وجعله من البديع) ، تدل على أنه ينكر أن يكون من بديع الجاحظ على هذا الفهم فيه ، ولكن الذي لاحظته أن أحداً ممن ذكروا هذا المذهب لم يبين أين قال الجاحظ بهذا المذهب الكلامي ، ويبدو أنه إلى الآن لم يعرف باحث موضع هذا النوع من كتب الجاحظ . والعسكرى نفسه الذي كان معنياً بكتب الجاحظ لم يذكر اسم الجاحظ مع هذا المذهب .

بقى نوع من البديع جاء في البيتين اللذين ذكرهما الجاحظ ، وهو يتحدث عن البديع هذا النوع هو (رد إعجاز الكلام على ماتقدمها) وهو يظهر في البيت الاول :

هم ساعد الدهر الذي يتقى به ومنكبه إن كان للدهر منكب

في تكرار كلمتى (ساعد) في البيت الاول ، ومنكب في البيت الثانى ، كان من حق هذا النوع من البديع أن ينسب إلى الجاحظ ، ولكن كان هذا النوع من الجاحظ على طرف الثمام فلو تنبه عليه لنبّه .

هذا وقد عرض الجاحظ لألوان أخرى من البيان أخذها المتأخرون عنه ، وإن لم يفصح هو عنها، من ذلك ماسماه علماء البلاغة (الاحتراس) وسماه الجاحظ (إصابة المقدار) قال طرفة في المقدار وإصابته :

فسقى ديارك ـ غير مفسدها صوب الربيع ، وديمة تهمى

طلب الغيث على قدر الحاجة ، لأن الفاضل ضار ، وقال ﷺ في دعائه : « اللهم اسقنا سقياً نافعاً » لأن المطر ربما جاء في غير إبان الزراعات ، وربما جاء والثمر في الجرن والطعام في البيادر ، وربما كان في الكثرة مجاوزاً لمقدار الحاجة [1] .

وعلى هذا فبديع الجاحظ هو البلاغة في أسمى درجاتها ، فالأسلوب المتميز المبتدع هو الذي يؤدى إلى البلاغة ، وهو الذي يعطيها البديع ، وبالتالي تكون الفنون البلاغية كلها فنوناً لتحقيق درجة الإبداع ، فالتشبيه ، والمجاز ، والكناية ، والطباق ، والفصل ، والوصل وغيرها من فنون ، إنما هى أوعية يحاول الفنان أن يصب فيها ابتكاره وإبداعه ونبوغه ، وقد ينجح وقد يخفق ، فليس هناك فنون بديعية ، إنما هناك

(1) البيان والتبين1 : 228 .

فنون تريد أن تحقق البديع ، أن تحقق البلاغة في أبدع صورها ، ومـن ثـم نحـس بمـدى الخسارة التى لحقت الدرس البلاغـى بـالانحراف إلى مـا يسـمي بفنـون البـديع ، بمعنـى تخصيص فنون بعينها تسمي (البديع) بينما المقصود مـن (الفنـون البديعيـة) الفنـون التـى نحاول من خلالها تحقيق الإبداع والإبتكار والتميز والفن الجميل .

المصادر والمراجع

1 ـ القرآن الكريم ، رواية الإمام قـالون ، منشـورات جمعيـة الـدعوة الإسـلامية العالميـة ، ط4 ، طرابلس 1999 م .
2 ـ الإتقان في علوم القرآن ، جلال الدين السيوطي ، المطبعة الأزهرية 1318 هـ .
3 ـ إرشاد العقل السـليم إلى مزايـا القـرآن الكـريم ، أبـو السـعود العمـادي ، دار إحيـاء الـتراث العربى ، ط4 بيروت 1414 هـ ـ 1994 م .
4 ـ الأغاني ، أبو الفرج الأصفهاني ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، (د . ت) .
5 ـ الإيضاح في علوم البلاغة ، الخطيب القزويني ، دار الجيل بيروت (د . ت) .
6 ـ بلاغـة أرسـطو بـين العـرب واليونـان ، د . إبـراهيم سـلامة ، مطبعـة مخيمـر ط2 ، 1371 ـ 1962م .
7 ـ البلاغة العربية في طور نشأتها ، سيد نوفل ، دار النهضة 1948م .
8 ـ البلاغة عند السكاكي ، د . أحمد مطلوب ، ط1 ، بغداد 1384 هـ ـ 1964م .
9 ـ البديع ، عبد الله بن المعتز ، تحقيق محمد عبدالمنعم خفاجي ، مطبعة الحلبي 1945م .
10 ـ البيان والتبيين ، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، تحقيـق عبـد السـلام هـارون ، مكتبـة الخانجي ، ط4 ، القاهرة 1395 هـ ـ 1975 م
11 ـ تاج العروس ، محمد مرتضى الزبيدى ، مطبعة دار صادر بيروت ، 1386 هـ ـ 1966م .
12 ـ تحرير التحبير ، ابـن أبـي الاصـبع المصـري ، تحقيـق حفـني محمـد شـرف ، المجلـس العلمي للشؤون الإسلامية ، مصر 1963 م .
13 ـ رسائل الجاحظ (الرسائل الأدبية) تحقيق الدكتور على أبو ملحم ، دار مكتبـة الهـلال ، ط1 بيروت 1987 م .
14 ـ طبقـات الشـعراء ، ابـن المعتـز ، تحقيـق عبدالسـتار أحمـد فـراج ، دار المعـارف ، مصر1956م .
15ـ القاموس المحيط ، مجد الدين الفيروز آبادى ، دار الجيل ، بيروت (د ت) .
16 ـ كتاب الصناعتين ، أبـو هـلال العسـكرى ، تحقيـق علـى البجـاوى، ومحمـد أبـو الفضـل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي ، ط1 ، مصر1952م
17 ـ كشـاف اصـطلاحات الفنـون التهـاوني ، تحقيـق لطفـى عبدالبـديع وعبـدالمنعم محمـد

حسنين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1977م .
18 ـ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، حاجى خليفة ، مكتبة المثنى بغداد (د ت) .
19 ـ لسان العرب ، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقى ، دار صادر بيروت 1953 .
20 ـ المقدمة ، عبد الرحمن محمد بن خلدون ، منشورات الأعلمي للمطبوعات ، لبنان (د . ت) .
21 ـ الموشح ، المرزباني ، تحقيق على محمد البجاوي ، دار الفكر العربي القاهرة 1965م .